

العراق



العراس

تأليف: ألبير كامو
ترجمة: جورج طرابيشي

منقورات دار مكتبة الحياة
بيروت



مقدمة الناشر

يمر الانسان في هذه الحقبة من الزمن ، التي استطاع فيها ان يغزو الفضاء ، بظروف صعبة ، حيث تتقاذفه تيارات فكرية مختلفة ، ونظريات علمية جديدة ، تجعله ملزماً بالإطلاع على اكبر مجموعة من الآراء القيمة في شؤون الحياة ، ليستطيع اختيار الصالح والملائم منها ، كي يصقل ما لديه من نظريات ويقوّم المنحرف ويعتدل بالمتطرف منها .

وإن « دار مكتبة الحياة » التي تعي رسالتها الثقافية وتدرك معنى مسؤوليتها الاجتماعية ، ما برحت تقدم لقراء العربية ، الكثير من المؤلفات العالمية ، وأغناها بالفكر الانساني واحفلها بالعمق في عرض مشاكل العصر وطرق حلها ، والتي يجد القارئ فيها خلاصة ما يحتاجه من الثقافة الفكرية العالمية ، لأنها تحتوي على اجود المؤلفات التي تنصدر الفكر الانساني وتوجه به المجتمعات والثقافات الفعالة .

وقد اعتمدت الدار خيرة المترجمين لنقلها الى اللغة العربية محافظة بهذا النقل على النصوص كاملة ، هادفة بذلك الى رفع المستوى الثقافي عند ابناء امتنا العربية .

ونحن إذ نعيد طبع هذا الكتاب القيم نهدف من ذلك إلى خدمة أبناء هذا

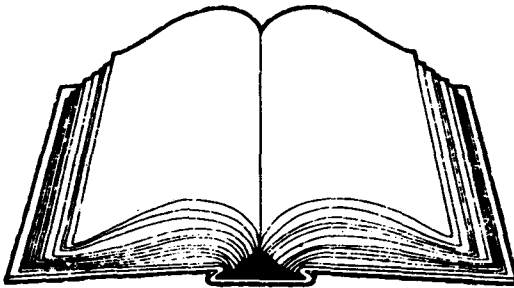
الجيل من الشعب العربي بسبب ما أحدثته آثار هذا المؤلف من توعية للجيل المتعطش إلى ارتشاف مناهل الفكر الحديث ، خصوصاً منها ملامم أمزجته ، وما عبّر عن عواطفه وأحاسيسه ، وليس كالبير. كماو كاتباً عصرياً استطاع أن ينفذ إلى أعماق النفوس بما أوتي من قدرة على سبر أغوار الحياة الانسانية ، وما له من براعة في التصوير الواضح لخطايا وأسرار الطبيعة حتى جعل من صورته الحية السنة فصيحة تخاطب مشاهديها ، باعثة في فكره بقظة ، وفي عقله نوراً وفي نفسه بهجة .

إن الرواج الذي لقيه هذا الكتاب شجعنا وحفزنا على إعادة طبعه لنقدم إلى جيلنا العربي الناهض المتوثب مزيداً من هذا الغذاء الروحي النافع المفيد. ولقد توخينا في هذه الطبعة الجودة والأناقة وحسن الاخراج أكثر من الطبعة الأولى ليكون بهجة للعين فوق غذاء الروح .

والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق .

الناشر

١٩٧٠/٤/٢١



تنبيه من الناشر الفرنسي

كتبت هذه المقالات اللواس ، التي نعيد طبعتها اليوم ، بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٧ ، ثم طبعت في عدد صغير من النسخ عام ١٩٣٨ في مدينة الجزائر . وهذه الطبعة الجديدة لا تدخل عليها أي تعديل ، رغم أن مؤلفها لم يكف عن اعتبارها مقالات ، بالمعنى الدقيق والحصري للفظه .



خفق الجلاذ الكردينال كارافا بخيط حريري
فانقطع ، فاضطر الي معاودة ذلك مرتين . نظر
الكردينال الي الجلاذ دون أن يتنازل فيفوه بكلمة
واحدة .



ستنهال
« دوقه باليانو »



أعراس في تيبازة



في الربيع ، تيبازه تسكنها الآلهة ، والآلهة تتكلم بحديث الشمس ورائحة الافستين ، والبحر المدرع بالفضة ، والسياء الزرقاء اللاظية ، والحرائب الملتحفة بالازهار ، والنور الذي يتدفق تدفقاً عظيماً بين أكوام الحجارة . في أويقات معينة ، يكون الريف أسود من الشمس . تحاول العين عبثاً ان تلتقط شيئاً آخر غير قطرات النور والالوان التي ترتعد على حافة الاهداب.تجدش رائحة النباتات المطرية العابقة الحلق وتحنق في الحر الشديد. لا أكاد أرى ، في أقصى المشهد ، الكتلة السوداء لجبل شنوة الذي تمتد جذوره في التلال المحيطة بالقرية ، ويهتز بايقاع واثق ثقيل ليتناهى فيقبع في البحر .

نصل الى القرية المنفتحة على الخليج.ندخل الى عالم أصفر وأزرق تستقبلنا فيه تنهدة أرض الصيف في الجزائر المطار الواخزة . جدران الفيلات ، في كل مكان ، تتمرش عليها نباتات البامية بمحمرتها التي ما تزال باهتة ، وحواشٍ رقيقة من أزهار السوسن الطويلة الزرقاء . الحجارة كلها ساخنة . عندما نهبط من الاوتوبيس المسجدي اللون ، يكون الجزائريون في سياراتهم الحمراء يقومون بجولتهم الصباحية ونفير أبوابهم ينادي السكان .

الى يسار المرفأ ، يفضي درج من الحجارة الجافة الى الحرائب بين أشجار

المصطكى والرتم . يمر الدرب أمام منارة صغيرة ليفوس فيما بعد في قلب الريف . وبدءاً من أسفل المنارة ، تنحدر نباتات غليظة لحمية الأوراق ، أزهارها بنفسجية وصفراء وحمراء نحو الصخور الأولى التي يرشها البحر بحفيف كحفيف القبلات . ننظر، وقوفاً في الريح الخفيفة، تحت الشمس التي تلمح جانباً واحداً من أوجها ، الى النور يهبط من السماء ، الى البحر لا يجمعه غضن واحد ، والى ابتسام أسنانه الوضيئة . قبل أن ندخل الى مملكة الخرائب ، نلقي نظرة متفرجة أخيرة .

نسير بضع خطوات ، فيطبق الافستين على خناقنا صوفه الرمادي يغطي الخرائب على مد النظر . أريجه يختمر تحت الحر . ومن الأرض الى الشمس يصعد على كل مدى العالم خمر سخى تترنح له السماء . نسير الى لقاء الحب والشهوة . لا نسأل دروساً ، ولا نبعث عن الفلسفة المريرة التي تطلب لأجل العظمة . كل شيء يبدو لنا باطلاً ، ما عدا الشمس ، والقبل والعطور لوحشية . أما أنا ، فلا أسمى الى أن أكون وحدي . لقد أتيت الى هنا غالباً مع من أحبهم وكنت أقرأ على أساريم الابتسامة الوضاء التي يشرق بها وجه الحب . انني أترك هنا لغيري النظام والاعتدال . انه فجور الطبيعة والبحر اللامحدود الذي يأسر خلاياي كلها . في زواج الخرائب والريبع هذا ، استعالت الخرائب صخور ، وعادت الى امها الطبيعة ، وقد تجردت من ملمسها الصقيل الذي فرضه عليها الانسان . لقد أفاضت الطبيعة بالأزهار، احتفالاً بعودة هاتيك البنات الضالات . بين حجارة الساحة ، يطل عباد الشمس برأسه المستدير الأبيض ، وتسفح أزهار أبر الراعي الحمراء دمها على ما كان منازل ، معابد ، وساحات عامة . وكأولئك الرجال الذين يميدم العلم الكثير الى الله، عادت أعوام كثيرة بالخرائب الى بيت امها . اليوم أخيراً

يتركها الماضي ، ولا شيء ينسبها هذه القوة العميقة التي تعود بها الى قرار الأشياء الحرة .

ما أكثر ما أمضيت من ساعات اسحق الافستين ، أداعب الخرائب ، أحاول أن أتنفس على أيقاع واحد مع تنهدات العالم اللجبة ا أفتح عيني ، وأنا منكفئء بين الروائح الوحشية وموسيقى الحشرات المتناومة ، وأفتح قلبي ، اذ كنت الى صلب الشنوة المتين ، يطمئن الى يقين غريب . كنت أتعلم كيف أتنفس ، وكنت أحقق نفسي وأندمج . كنت أتسلق التلال الواحد تلو الآخر ، فأجد في كل منها مكافأة احتفظ لي بها ، كذلك المعبد الذي تقيس أعمده سباق الشمس والذي أرى منه القرية بكاملها ، يجدرانها البيضاء والوردية وشرفاتها الخضراء . وكذلك أيضاً تلك الكنيسة على التل الشرقي : لقد احتفظت يجدرانها ، وفي دائرة كبيرة حولها تصطف نواويس منبوثة معظمها لم يتحرر بعد من الأرض التي لا زال يشكل جزءاً منها . لقد ضمت أمواتاً . أما الآن ، فتنبت عليها القويسة والفجل البري . كنيسة سانت - صلصا مسيحية ، لكن في كل مرة ننظر فيها من فتحة ، تأتي إلينا أنشودة العالم : تلال مزروعة بالصنوبر والسرو ، أو البحر الذي يخاتل كلابه البيض على بعد عشرين متراً . التل الذي يحمل سانت - صلصا مسطح في قمته والرياح تهب بقوة أشد من خلال الأروقة . تحت شمس الصباح ، تتأوج سعادة كبيرة في الفضاء .

ما أفقر من هم بحاجة الى أساطير . مهمة الآلهة هنا أن تكون متكآت أو صوى في سباق الأيام . أصف وأقول : « هذا أحمر ، هذا أزرق ، هذا أخضر . هوذا البحر ، والجبل ، والزهور ، . وما حاجتي الى الكلام عن

ديونيسيوس^(١) لأقول انني أحب أن أسحق كرات المصطكى تحت أنفي ؟ بل أهو ديميتير^(٢) صاحب هذا النشيد الذي سأفكر فيه فيما بعد دون قسر : « سعيد من بين الأحياء على الأرض من رأى هذه الأشياء » . ان نرى ، ونرى على هذه الأرض ، كيف ننسى الأمثلة ؟ وبدلاً من أسرار ايلوزيس^(٣) ، يكفي أن نتأمل . هنا بالذات ، أعرف انني لن أتقرب أبداً من العالم ما فيه الكفاية . يتوجب علي أن أكون عارياً ثم أن أغوص في البحر ، وأنا لا أزال أعقب بروائح الأرض ، وأن أغسل هذه في ذلك ، وأن أعقد على جلدي العناق الذي يتهد اليه البحر والأرض شفة الى شفة منذ زمن بعيد جداً . ومع دخولي في الماء ، يكون الانكماش ، وعودتي دبق بارد صفيق ، ثم أغوص والطين في اذني ، وأنفي يسيل وفي مرء - أسبح وذراعي مطليتان بالماء تعومان فوق البحر لتبهها الشمس لونا ذهبياً وتلتويان بكل ما في عضلاتهما من قوة وانزلاق الماء على جسمي وعناق ساقى اللجب للموج - والافق غائب . وعلى الشاطئ أهالك على الرمل ، مستسلماً للعالم ، منكفئاً في ثقل جسدي وعظمي ، صريع الشمس ، القي ، بين الفينة والأخرى ، نظرة الى ذراعي فتتكشف القطرات فوق الجلد الجاف ، مع انسياب الماء ، عن الزغب الأشقر وغبار الملح .

انني أفهم هنا ما يسمى بالمجد : الحق في الحب الى ما لا نهاية . ليس في هذا العالم إلا حب واحد . فعناق جسد امرأة هو أيضاً عناق لهذا الفرح الغريب الذي يهبط من السماء الى البحر . بعد قليل ، لحين سألقي بنفسي بين

(١) آله البحر عند اليونان .

(٢) آله الارض عند اليونان .

(٣) معبد للاله ديميتيس قريباً من أثينا .

الأفستين لأدخل أريجه الى جسدي ، ساعي أنني ، رغم كل الآراء المسبقة ،
 احقق حقيقة هي حقيقة الشمس وستكون ايضاً حقيقة موتي . وبمعنى ما ،
 انها حياقي التي أقامر بها هنا ، حياة لا طعم الحجارة الساخنة ، مليئة بتنهيدات
 البحر واليزان التي أخذت تنفي الآن . النسيم رطب والسماء زرقاء . انني
 أحب هذه الحياة حباً لا تكلف فيه وأريد أن أتكلم عنها بحرية : انها تمنحني
 كبريائي لكوني انساناً . ومع ذلك ، ما اكثر ما قيل لي هذا : لا شيء يدعو
 للفخر . بلى ، ثمة ما يدعو الى ذلك : هذه الشمس ، هذا البحر ، قلبي
 المتوثب بالشباب ، جسدي بما فيه من طعم الملح ، والمدي اللامحدود الذي
 يلتقي فيه الحنان والمجد في الصفرة والزرقة . فلأف قوتي وطاقتي على تحقيق
 ذلك . كل شيء هنا يتركني بكرأ ، فأنا لا أتخلى عن شيء من ذاتي ، ولا
 أتجرب بأي قناع : يكفيني أن أتعلم بصبر علم الحياة الصعب الذي يفوق كل
 فنون الحياة.

كنا نعود ، قبل الظهر بقليل ، من الخرائب الى مقهى صغير قرب المرفأ .
 رأسي يطن بصنوج الشمس والالوان ، ما ارطبه من استقبال ، اعني استقبال
 القاعة الغارقة في الظل ، وكأس النعنع الأخضر البارد الكبيرة ! في الخارج ،
 البحر ، والطريق المتأججة بالغبار . احاول ، وانا جالس الى المائدة ، ان
 التقط بين اهدابي الطارقة سطوع السماء البيضاء من الحر المتعدد الالوان .
 نبسط جميعاً ، وأوجهنا مبلة بالمرق ، لكن اجسامنا رطبة تحت القماش
 الخفيف الذي يوشحنا ، التعب السعيد ليوم عرس مع العالم .

الطعام رديء في هذا المقهى ، لكن الفاكهة وافرة - وعلى الأخص
 الدراق الذي نأكله نهشاً ، فيسيل سلافه على ذقوننا . اصفي ، وأسنانني مطبقة
 على الدراق ، الى وجيب دمي الكبير يتصاعد حتى أذني ، وانظر بملء عيني .
 انه صمت الظهر المطبق ، على اديم البحر . ان لكل كائن جميل كبرياءه

الطبيعية بمجاله والعالم اليوم يترك كبريائه تنضح من كل الجهات . فلم انكر ، امامه ، فرح الحياة ، وإن كنت اعرف أن ليس كل شيء في الحياة فرحاً ؟ لا عار على الانسان ان يكون سعيداً . لكن الاحق اليوم ملك ، واني لأسمي احمق من يخاف من المتعة . ما اكثر ما حدثونا عن الكبرياء : أتعرفون ، انها خطيئة ابليس . كانوا يصيحون : خذ حذرك ، فسوف تهلك وانت في عنفوان الحياة . ثم علمت بالفعل ان بعضاً من الكبرياء ... لكفي في اويقات اخرى لا استطيع منع نفسي من المناداة بكبرياء الحياة التي يتأمر العالم بأسره على منحي اياها . ففي تيبازه ، «أرى» تعادل «أؤمن» ، وأنا لا اصر على انكار ما تستطيع يدي ان تلمسه وشفثاي ان تداعباه . انني لا اشعر بالحاجة الى ان اصنع من ذلك آية فنية ، بل إلى أن أروي ، وهذا أمر آخر . تيبازه تبدو لي كتلك الشخصيات التي توصف لتدل دلالة غير مباشرة على وجهة نظر عن العالم . انها ، مثلها ، تشهد ، وبرجولة . انها اليوم شخصية قصتي ، ويخيل الي ان نشوتي بمداعتها ووصفها لن تكون لها نهاية . ثمه وقت للحياة ووقت للشهادة على الحياة . وثمره ايضاً وقت للخلق ، وهذا أقل طبيعية . يكفيني أن أعيش بكل جسدي وأن اشهد بكل قلبي ، ان أعيش تيبازه ، واشهد ، ثم ستأتي الآية الفنية فيما بعد . إن في هذا الحرية .

لم ابق قط في تيبازه اكثر من نهار واحد . فهناك دوماً لحظة تشعر فيها انك رأيت مشهداً ما اكثر مما ينبغي ، تماماً كما ان رؤيته بما فيه الكفاية تقتضي وقتاً طويلاً . ان الجبال ، السماء ، البحر ، هي كأوجه تكتشف فيها الجذب أو العظمة ، لكثرة ما تنظر بدل أن ترى . لكن كل وجه يجب أن يتحمل لكي يكون معبراً ، بعض التجديد . واننا لنشكو من اننا سئما

بسرعة كبيرة حين كان يجب أن نعجب من ان العالم يبدو لنا جديداً لمجرد انه نسي .

عند المساء ، كنت ألبأ الى قسم من الحديقة أكثر تنظيمياً ، مهدت أرضه الى مرج ، على حافة الطريق العام . وكان الفكر يهدأ ، والجسم المسترخي يتلذذ بالصمت الداخلي الذي يلد من الحب المرقوي ، عند الخروج من جلبة المطور والشمس ، في نسيم المساء العليل . كنت قد جلست على مقعد . ورحت أنظر الى الريف يزداد جمالاً وتناسقاً مع افول النهار . كنت مشبعاً . كانت فوقى شجرة رمان تتدلى براعم زهرها ، مكومة مضلعة كعقبات صغيرة مطبقة تضم أمل الربيع كله . كان خلفي عبيثان ولم أكن أشعر به إلا من عطر الحجر . كانت هناك تلال تلوح بين الأشجار ، والى بعيد شريط من البحر نجم فوقه السماء بكل حنانها ، كسراع ساكن ، كان في قلبي فرح غريب ، فرح لا يتأتى إلا من الضمير المراتح . ثمة شعور يعرفه الممثلون حين يدركون أنهم أدوا أدوارهم كما يجب ، أي حين يدركون ، بالمعنى الأدق ، أنهم طابقوا حركاتهم مع حركات الشخصية الخيالية التي يحسدونها انهم دخلوا بمعنى ما في رسم أعد مقدماً فجعلوه بضربة واحدة يمش ويخفق بقلبيهم . كان هذا على وجه التحديد ما أشعر به : لقد أدت دوري على أتم ما يرام . لقد قت بهنقي كإنسان ، ولم تكن ممارستي الفرح طوال نهار تطويل تبدو لي نجاحاً استثنائياً ، بل تحقيقاً منفعلاً لحالة تحتم علينا ، في بعض الظروف ، ان نكون سعداء . عندئذ نهدي الى العزلة ثانية ، لكنها عزلة الارتواء هذه المرة .

* * *

الأشجار الآن عامرة بالمصافير . الأرض تتنهد ببطء قبل أن تتسربل

الظلمة . عما قريب ، مع النجمة الأولى ، سيرخي الليل سدوله على مسرح
لعالم . وستكفيء آلهة النور الوضاعة الى موتها اليومي . ولكن آلهة اخرى
ستأتي . وهي ، وان كانت أشد إظلاماً ، قد ولدت وجوهها التالفة مع ذلك
في قلب الأرض .

كان تكسر الأمواج المتواصل على الرمل يصلني ، الآن على الأقل ، من
خلال فضاء رحب يرقص فيه غبار الطلع الذهبي . البحر ، الريف ، الصمت ،
عطور هذه الأرض ، كنت امتلىء بحياة اريجية وأعض على ثمرة العالم الذهبية ،
وقد بلباني الاحساس بسلافها السكري القوي يسيل على شفتي . كلا ، لم تكن
الأمية لي ، ولا للعالم ، بل فقط للتوافق والصمت الذي يولد حبي للعالم ،
حب أشفق عليه من المطالبة به لنفسي وحدي ، ادرك وافخر بأنني اتقاسمه
مع عرق كامل ، عرق ولد من الشمس والبحر ، عرق حي وذو اقة ، يستمد
عظمته من بساطته ، ويوجد ابتسامته المتواطئة ، وهو منتصب الى الشيطان ،
الى ابتسامه سماواته الوضيئة .





الرياح في جملة



ثمة أمكنة يموت فيها الفكر لتولد حقيقة هي نفي له بالذات . فحين ذهبت الى جميلة ، كان هناك ربح وشمس ، لكن هذه قصة أخرى . ما يجب أن أقوله بادىء ذي بدء هو أنه كان يخيم عليها صمت كبير ثقيل لا صدع فيه - شيء ما أشبه بتوازن ميزان . صيحات طيور ، الصوت المكتوم لنادي ذي ثلاث فتحات ، وطء ماعز ، لجة قادمة من السماء ، كثير من هذه الأصوات التي تطبع هذه الأمكنة بالصمت والأسى . بين الفينة والفينة ، كان اصطفاق جاف ، وصيحة حادة ، يشيران الى طيران طير جاثم بين الصخور . كل درب مسلوكة ، الممرات بين اشلاء البيوت ، الشوارع الكبيرة المبلطة تحت الاعمدة الساطعة ، الساحة العريضة بين قوس النصر والمعبد على رابية ، كل شيء يفضي الى الشعاب التي تطوق جميلة من كل الجهات ، كلمبة ورق مبسوطه على سماء لا حدود لها . وأجد نفسي هنا متحفزاً ، مجاهباً الحجارة والصمت كلما تقدم النهار وتماظمت الجبال واستحال لونها بنفسجياً . لكن الريح تهب على هضبة جميلة . وفي هذا الخليط الكبير من الريح والشمس الذي يفرق الخرائب بالنور ، يتكون شيء ما يمنح الانسان ايقاع اتحاده بالعزلة . صمت المدينة الميتة .

الذهاب الى جميلة يقتضي وقتاً طويلاً . انها ليست مدينة تتوقف فيها ثم تتجاوزها . انها لا تفضي الى أي جهة ولا تنفتح على أي بلد . انها مكان 'يرجع منه . المدينة الميتة تقع عند منتهى طريق طويل متعرج يبدو وكأنه يعد بها عند كل منعطف من منعطفاته فيبدو لذلك أكثر طولاً .

حين يبرز اخيراً على هضبة باهتة الألوان ، هيكل جميلة العظمي المائل الى الصفرة كغابة من رفات الموتى المدفون بين جبال عليية ، فان جميلة ترمز عندئذ إلى امثولة الحب والصبر التي يمكنها وحدها أن تقودنا إلى قلب العالم

النابض . هناك ، بين بضع أشجار ، والعشب اليابس ، تحمي نفسها بكل جبالها وبكل صخورها ، من الأعجاب المتبدل ، من الافتتان ، أو من ألعاب الأمل .

لقد هنا طوال النهار ، في هذه العظيمة القاحلة واخذت الريح ، التي كنا لا نكاد نحس بها في بداية بعد الظهر ، تتماظم مع مر الساعات ونملاً المشهد كله . كانت تهب من فجوة بين الجبال ، بعيداً نحو الشرق ، وتتدفق من أقصى الأفق ، وتأتي لتشب وثباً بين الصخور وتحت الشمس . كانت تصفر بقوة ، بلا توقف ، من خلال الحرائب ، وتحوم في دائرة من الصخور والأتراب ، وتفرق اكوام الحجارة المنقوشة ، وتطوق كل عمود بنفيحها ، وتنبسط في صيحات متصلة على ساحة الملعب المنفتحة تحت السماء . كنت اشعر ان الريح تصفني كصارية سفينة . كان جلدي ، بأحشائي المحوفة وبعيني المحترقتين وشفتي المشققتين ، يحف جفافاً شعرت معه انه لم يعد جلدي . بهذا الجلد كنت ، في الماضي ، افك ألقاز كتابة العالم . كان العالم يرسم عليه شارات حنانه أو غضبه ، ويدفئه بلهات صيفه ، أو يمضه بأسنان حقيقية . لكن الآن وقد لفحتني الريح طويلاً ، وهزنتي طوال ساعة ونيف من الزمن ، ودوختني مقاومتها فإنني بت لا اعني الرسم الذي يخطه جسمي . كنت مصقولاً بالريح ، مهترئاً حتى الروح كالحصاة التي صقلها المد والجزر . كنت بعضاً من تلك القوة التي أعوم بقدرتها ، ثم القسم الأكبر منها ، ثم كلها أخيراً ، غير مميز وجيب دمي من ضربات قلب الطبيعة الكبيرة الرنانة ، ذاك القلب المائل في كل مكان . كانت الريح تنتحني على صورة العري المتأجج الذي يحيط بي . وكان عناقها الجريح يهيني ، أنا الصخرة بين الصخور ، عزلة عمود أو شجرة زيتون تحت سماء الصيف .

كان هذا الحمام العنيق من الشمس والريح يستنفد قواي الحيوية كلها .

يكاد لا يبقى في شيء إلا خفقان أجنحة يرف ، حياة تشكو ، تمرد فكر
واهن . عما قريب ، اتوزع بين أركان العالم الأربعة ، ناسياً ، منسياً من نفسي ،
فأصبح هذه الريح وفي الريح ، هذه الأعمدة وهذا القوس ، هذه البلاطات
اللاظية وهذه الجبال الشاحبة حول المدينة القاحلة . ولم اشعر قط ، فيما مضى ،
بانفصالي عن ذاتي وبحضوري في العالم في آن واحد ، كما أشعر الآن .

أجل ، انني حاضر . وما يذهلني في هذه الهنيهة انني لا استطيع أن
أذهب إلى أبعد من ذلك . مثل رجل محكوم بالسجن المؤبد - وكل شيء
حاضر أمامه . لكن أيضاً مثل رجل يعرف ان الغد سيكون مشابهاً وكذلك
سائر الأيام . ذلك ان وعي الانسان حاضره ، معناه ألا يعود ينتظر شيئاً .
وإذا كانت هناك مشاهد هي عبارة عن حالات نفسية ، فهي اكثر المشاهد
ابتداءً . كنت اسعى على طول هذا البلد وراء شيء ما ليس لي ، بل منه ،
كطعم الموت المشترك بيننا فكانت الهواجس ، بين الأعمدة ذات الظلال المائلة
الآن ، تذوب في الهواء كطيور جريجة : ويجل مكانها هذا الصحو الجذب .
ان القلق يلد من قلب الأحياء . لكن الهدوء سيحجب هذا القلب الحي :
هوذا صحوي كله وكلما تقدم النهار ، واختنقت الأصوات والأنوار تحت
الرماد الذي يسقط من السماء ، أشعر بنفسي ، وقد خلوت لذاتي ، انني بلا
دفاع ضد القوى الوئيدة التي تقول لا في داخلي .

قليل من الناس يفهم ان هناك رفضاً لا علاقة له بالتخلي . ماذا تعني هنا
ألفاظ المستقبل ، وتحسن المعيشة ، والمركز ؟ ماذا يعني تقدم القلب ؟ إذا
كنت أرفض بعناد كل ما في العالم من « فيما بعد » ، فهذا لأنني أود ألا انخلي
عن غناي الحاضر . لا يمجبنني أن أومن بأن الموت يفضي إلى حياة أخرى ،
انه بالنسبة لي باب مغلق لا اقول انه خطوة يجب أن نخطوها: بل انه مغامرة

فطبيعة وقدرة ، كل ما يُقترح على من يسمى إلى أن يخفف عن الانسان وطأة حياته ، وأمام الطيران الثقيل للطيور الكبيرة في سماء جميلة ، انما أطلب على وجه التحديد بثقل معين للحياة واحصل عليه ، ان اكون بكل خلاياي في هذا الهوى السليبي ولن يعود لغير ذلك من علاقة بي ، أن في من الشباب ما لا يمكنني معه ان اتكلم عن الموت لكن يخيل إلي أنه إذا كان علي أن أفعل ذلك ، فإنما هنا سأجد الكلمة المضبوطة التي تعبر ، بين الهول والصمت ، عن اليقين الواعي لموت بلا أمل .

ان الانسان ليعيش مع بضع أفكار أليفة . ففكرتان أو ثلاث . وحسب العوالم والبشر الذين يلتقي بهم ، يصقلها ويبدلها . لا بد من عشر سنين كي تكون للانسان فكرة خاصة به فعلا - يستطيع ان يتكلم عنها . بالطبع ، في هذا شيء من التشبث . لكن الانسان يربح منه تآلفاً معيناً مع وجه العالم الجميل . فقد كان ، حتى الآن ، يراه وجهاً لوجه . ولا بد له من ان يخطو خطوة جانبيه لينظر الى وجهه الجانبي . ان انساناً شاباً ينظر الى العالم وجهاً لوجه . فالوقت لم يتسن له ليصقل فكرة الموت أو العدم الذي قد عرك هوله مع ذلك . لا بد ان هذا هو الشباب ، هذا الاختلاء القاسي مع الموت ، هذا الخوف الجسدي للحيوان الذي يحب الشمس . وبخلاف ما يقال ، بهذا الصدد على الأقل ، فان الشباب لا يتعلل بالاوهام ، فهو لم يتح له لا الوقت ولا الورع ليبنى قصور الاوهام ولست ادري لماذا ، امام هذا المشهد المتخدر ، امام هذه البصرخة الحجرية المأتمية والاحتفالية ، جميلة ، اللإنسانية في سقوط الشمس امام موت الأمل والالوان هذا ، لست أدري لماذا كنت واثقاً ان على الرجال الجديرين بهذا الاسم ، عند بلوغهم خاتمة الحياة ، ان يعودوا الى تلك الخطوة ، ان ينكروا الافكار القليلة التي كانت افكارهم ،

ويستعيدوا البراءة والحقيقة التي تسطع في نظرة البشر القدامى تجاه مصيرهم .
انهم يعودون الى شبابهم مجدداً ، لكن بضاقهم الموت . ولا أحقر من المرض
في هذا الصدد . انه دواء ضد الموت . انه يهد له . انه يخلق مراناً مرحلته
الاولى ، الاشفاق على الذات . انه يدعم الانسان في جهده الكبير ، أعني
جهده في التهرب من يقينه بأنه سيموت بأسره . لكن جميلة ... وأشعر
عندئذ ان التقدم الحقيقي الوحيد ، للحضارة ، التقدم الذي يتعلق به أحد
البشر من زمن لآخر ، هو ان نبدع ميتات واعية .

ان ما يدهشني دوماً هو فقر أفكارنا عن الموت ، مع اننا نشيطون جداً
في قتل سائر المواضيع بحثاً . انه خير أو انه شر . انني أخاف منه أو
أناديه (كما يقولون) لكن هذا يثبت ايضاً ان كل ما هو بسيط يتجاوزنا .
ما الأزرق وما تفكر عن الازرق ؟ انها الصعوبة نفسها بالنسبة للموت . نحن
لا نعرف أن نتناقش عن الموت وعن الالوان . ومع ذلك ، فإن المهم هو
هذا الرجل المائل امامي ، الثقيل كالارض الذي يرمز الى مستقبلي مقدماً .
لكن أستطيع أن أفكر به حقاً ؟ أقول في نفسي ، ساموت ،
لكن هذا لا يعني شيئاً ، لأنني لا أتوصل الى الاعتقاد به ولا يمكن أن
تكون لي الا تجربة موت الآخرين . لقد رأيت اناساً يموتون . رأيت ، على
الأخص ، كلاباً تموت . وكان لمسها هو الذي يبلبلي أفكر عندئذ : الأزهار ،
الابتسامات . الشهوات الى المرأة ، وأفهم ان كل رعيي من الموت يكن في
غيرتي على الحياة . انني غيور ممن سيعيشون ، ومن سيكون للازهار والشهوات
الى المرأة معنى من لحم ودم بالنسبة لهم . انني حسود ، لأنني أحب الحياة
حباً جما لا أستطيع معه إلا أن أكون أنانياً . ما شأني والأبدية . أستطيع
ان أكون هنا ، راقداً ذات يوم ، واسمع نفسي أقول : « أنت قوي واني

مدين لك بصديقي : أستطيع أن أقول لك انك ستموت . ان أكون هنا ، وكل حياتي بين يدي ، وكل خوفي بين أحشائي ، وفي عيني نظرة بلهاء . أما غير ذلك . فماذا يعني : أمواج من الدم تأتي لتضرب صدغي ويخيل الي انني سأسحق كل شيء حولي .

لكن البشر يموتون رغم أنهم ، رغمًا عن ديكوراتهم . يقال لهم : « حين ستشقى ... » ، ويموتون . لا أريد هذا . ذلك انه إذا كانت هناك أيام تكذب فيها الطبيعة ، فهناك أيام تصدق فيها القول . جميلة تصدق القول هذا المساء ، وبأي جمال حزين وملح ! أما عني أنا فلا أريد ، أمام هذا العالم لا ان أكذب ولا ان يكذب علي . أريد ان أحمل صحوي حتى الثالثة وان أنفد الى نهايتي بكل اسراف غيرتي وسعادي . وبمقدار ما انفصل عن العالم أخاف من الموت ، بمقدار ما ارتبط بمصير البشر الذين يعيشون ، بدلاً من ان أتأمل السماء التي تدوم أبداً . اننا بإبداعنا ميتات واعية ، نقرب المسافة التي تفصلنا عن العالم ، وندخل بلا فرح في الأنجاز الواعي لصور نشوى عن عالم اضعناه الى الأبد . والنشيد الحزين لتلال جميلة يعمق في روحي مرارة هذه الحقيقة .

نرتقي ، اذ يقبل المساء ، المنحدرات التي تفضي الى القرية ، ونستمع ، إذ نعود ادراجنا ، الى شروح : « هنا كانت المدينة الوثنية . وهذا الحي الذي يمتد خارج الأراضي هو حي المسيحيين فيما بعد ... » أجل ، هذا صحيح . لقد تعاقب هنا بشر ومجتمعات . وطبع فاتحو هذا البلد بحضارتهم ، حضارة ضباط الصف . كانت لهم فكرة دنيئة وسخيفة عن العظمة ،

وكانوا يقيسون عظمة امبراطوريتهم بالمساحة التي تحتلها . أما المعجزة فهي ان خرائب حضارتهم هي نفي لملتهم الأعلى بالذات . ذلك ان هذه المدينة التي لم يبق منها الا هيكلها العظيمي لا ترسم على أديم السماء ، اذا ما نظر اليها من شاهق في المساء المتلاشي ومن خلال طيران الياقوت الأبيض حول قوس النصر ، شاربات الفتح والطموح . ان العالم يقهر دوماً في النهاية التاريخ . وهذه الصيحة الحجرية العظيمة التي تطلقها جميلة بين الجبال ، والسماء والصمت انني أعرف ما فيها من شعر ، صحو ، لا مبالاة ، الامارات الحقيقية لليأس أو للخبال . إن القلب لينقبض أمام هذه العظمة التي أخذنا نغادرها . جميلة تبقى خلفنا بقاء سمائها الحزين ، ونشيد طير آتٍ من الجانب الآخر للهضبة ، وانسياب مفاجيء سريع لما عز على سفوح التلال ، والوجه الحي لإله أقرن يتسم أحد الهياكل ، في الفسق المتراخي الرنان .



الصيف في الجزائر



ان الحب الذي تتبادله مع مدينة هو على الأغلب حب سرى . ان مدناً كباريس ، براغ ، وحتى فلورنسا ، هي مدن منغلقة على نفسها وتحدد بالتالي العالم الخاص بها . لكن الجزائر ، مع بعض الاوساط الممتازة كالمدين على البحر ، تنفتح في السماء مثل قم او جرح. وما قد تحبه في الجزائر هو ما يعيش منه جميع الناس : البحر عند منعطف كل شارع ، ثقل معين للشمس ، جمال العرق . وكما هو الحال دوماً ، فان في هذا العهد وفي هذه التقدمة لمطراً اكثر سرية . ففي باريس ، قد يأخذك الحنين الى الفضاء واصطفاق الاجنحة . اما هنا ، على الأقل ، فالانسان مفعم ، واثق من رغباته فيستطيع عندئذ ان يقدر ثرواته .

لا بد للمرء بدون شك أن يعيش حقبة طويلة من الزمن مدينة الجزائر ليفهم أي جفاف يمكن ان يحدثه الافراط في الثروات الطبيعية . فلا شيء هنا

لمن يريد ان يتعلم ، او يتشف ، او يرتقي . ان هذا البلد بدون دروس . انه لا يعد بشيء ولا يحمل على الاوهام . انه يكفي بأن يعطي ، لكن ما اعظم اريحيته في العطاء . انه يهب نفسه بأسره الى العين وانك لتعرفه ما ان تتمتع به . ان ملذاته لا دواء لها ، وافراحه تظل بلا أمل . وما يتطلبه هو نفوس نيرة ، اي لا تقبل عزاء . انه يطلب ان يقوم الانسان بفعل صاح مثلما يقوم بفعل ايمان . يا لبلد الفريد الذي يهب الانسان الذي يغذيه عظمته وبؤسه في آن واحد! وليس من المدهش ان يكون الغنى الشهواني الذي يتمتع به انسان حساس من هذا البلد متوافقاً مع منتهى التجرد . ليس ثمة من حقيقة لا تحمل معها مرارتها . فأبي عجب اذن اذا كنت لا أحب وجه هذا البلد إلا وسط ابنائه الاكثر فاقة !

ان البشر يجدون هنا طوال شباهم حياة على قدر جاهلهم . وبعد ذلك يكون الافول والنسيان . لقد راهنوا على الجسد ، لكنهم كانوا يعرفون انهم خاسرون ، ان كل شيء في الجزائر ، بالنسبة لمن هو شاب وحي ، وملجأ وذريعة للانتصارات : الخليج الشمس ، لعب ألوان الأسطحة الحمراء والبيضاء من ناحية البحر ، الأزهار والملاعب ، الصبايا بسيقانهن البضة . اما من فقد شبابه ، فلا يجد شيئاً يتشبث به او مكاناً تستطيع الكتابة فيه ان تهرب من نفسها في غير هذا المكان ، هناك اسطحة ايطاليا ، أديرة اوروبا ، أو وشي التلال البروفانسية ، وغيرها من الامكنة التي يستطيع فيها الانسان أن يهرب من انسانيته ويستسلم بعذوبة الى ذاته . لكن كل شيء هنا يتطلب العزلة ودم شباب الرجال . كان غوته ، وهو محتضر ، ينادي النور ، وهذه كلمة تاريخية . اما في بلكور وباب الاود ، فان الشيوخ الجالسين في صدر المقاهي يستمعون الى تبجحات الفتيان بشعورهم المصوقة .

هذه البدايات وهذه النهايات ، انه الصيف الذي يقدمها لنا في الجزائر ان المدينة تقفر ، خلال هذه الاشهر . لكن الفقراء يلبثون فيها والساء ومع الاوائل ، نزل معاً نحو المرفأ وكنوز الانسان : سخونة الماء واجساد النساء السمرة . وعند المساء يعودون ، وقد اكتظوا من هذه الثروات ، الى القماشة المشمعة ومصباح الزيت وهما كل ما لديهم من ديكور في حياتهم .

* * *

في الجزائر ، لا يقال « لناخذ حماماً » ، بل « لنضرب حماماً » لا داعي للالاح . انهم يسبحون في المرفأ ويذهبون للاستراحة على عوامات . حين يمرّون بقرب عوامة عليها صببة جميلة ، يصيحون برفاقهم : « اقول لك انها نورس » . ان هذه الافراح صحيحة . ولا بد من الايمان بأنها تشكل المثل الاعلى لهؤلاء الفتيان ما دام معظمهم يتابع هذه الحياة اثناء الشتاء ، ويتمرر ، ظهر كل يوم ، تحت الشمس لتناول غذاء طفيف . وليس ذلك لأنهم قرؤوا المواعظ المملة لأنصار الطبيعة ، اولئك المبالغين في اهمية الجسد (هناك فلسفة للجسد لا تقل اثاراً للفيظ عن فلسفة الروح) . بل لأنهم « على ما يرام تحت الشمس » . ولعلنا لن نستطيع ابدأ ان نعطي من اهمية هذه المادة بالنسبة لمصرنا بما فيه الكفاية . فلأول مرة منذ ألفي عام ، وضع الجسد عارياً على شطآن . ومنذ عشرين قرناً والبشر يحاولون أن يضيفوا طابع الحشمة على السفاهة والسذاجة اليونانيتين ، وينقصوا من شأن الجسد ، ويعقدوا الملابس . أما اليوم ، ورغم هذا التاريخ ، فان سباق الفتيان على شطآن البحر المتوسط ان هو الا استمرار للحركات العظيمة لرياضي ديلوس . وأنت ان عشت هكذا قرب الأجساد وبالجسد ، فإنك ستبين ان له درجاته ، وحياته ، وقد اجازف بالقول ان له

لا معنى ، وبسيكولوجية خاصة به ^(١) . ان لتطور الجسم كتطور الروح تاريخه ، وانتكاساته ، وتقدمه ، وعجزه . وهذا الفرق الطفيف فقط : اللون . حين تذهب الى مسابح المرفأ أثناء الصيف ، تدرك ان جميع الاجسام تنتقل انتقالاً متوافقاً من الأبيض الى الذهبي ، ثم الى الأسمر ، وفي النهاية الى لون تبغي هو منتهى الجهد الذي يستطيع الجسم ان يبذله في تحوله . ويهيمن حي القصبه على المرفأ بانعكاس مكعباته البيضاء فتبدو الأجسام وكأنها تبسط نسيجاً نحاسي اللون ، على صفحة الماء التي استحالت خلفية بيضاء ساطعة للمدنية العربية . وكلما تقدم شهر آب ، واحتدت الشمس ، ازداد بياض المنازل بهراً للابصار واكتست البشرات بجمرة أشد دكنة . فكيف لا نتحد عندئذ بهذا الحوار بين الصخر والجسد اتحاد الشمس والفصول ؟ لقد انقضت فترة الصباح كلها في الغطس ، وفي أريج الضحكات بين فوارات الماء . وفي تجذيف طويل حول المراكب الحمر والسود (المراكب التي تأتي من الزوبج والتي تفوح منها كل عطور الخشب ، والمراكب التي تقدم من المانيا مليئة برائحة الزيوت ، والمراكب التي تنتقل بين مدن الساحل وتعبق بالبخار والبراميل العتيقة) . وفي الساعة التي تطفح فيها الشمس من كل زوايا السماء ، يعود بنا الى الزورق البدائي البرتقالي ، محملاً بالاجسام السمر ، في سباق

(١) : هل اتسأخف وأقول انني لا أحب الطريقة التي يعظم بها اندريه جيد الجسد ؟ انه يطلب اليه ان يردع شهرته ليجعلها أكثر حدة ، وهكذا يقرب من يطلق عليهم ، في الهجة العامية للبيوت الممومية ، اسم المقدين أو المحمومين والسيحية أيضاً تريد أن تعطل الشهوة . لكنها ترى في ذلك ، وهذا أكثر طبيعية ، اماتة . أما رفيقي فانسان الذي يمتن صنع البراميل والذي فاز ببطولة السباحة ، فان له عن الأشياء نظرة أصفى أيضاً . انه يشرب حين يعطش ، واذا اشتهى امرأه سقى الى النوم معها ، وسيزوجها اذا أحبها (لم يحدث هذا بعد) . وبعد ذلك ، يقول دوماً « الحال تتحسن » - وهذه العبارة تلخص بدقة كل ما يمكن ان نمسح به الارقواء .

مجنون . وحين ينقطع فجأة الوجيب الايقاعي للمجداف المزدوج ذي الاجنحة التي بلون الثمار ، وتنساب ملياً على الماء الهاديء في حوض المرفأ ، كيف لا أكون واثقاً انني أقود عبر المياه الملساء شحنة صهباء من آلهة أتعرف فيهم اخوتي ؟

لكن الصيف يبسط لنا ، في الطرف الآخر من المدينة ، ثرواته الأخرى المضادة : أعني لحظات صمته وسأمه . ان لحظات الصمت هذه ليست كلها ذات نوعية واحدة ، فمنها ما يولد من الظل ومنها ما يولد من الشمس . فهناك صمت الظهيرة في ساحة الحكومة . وفي ظل الأشجار التي تحفها ، يبيع عرب كؤوساً من شراب الليمون المثلج ، المعطر بزهر البرتقال ، بخمسة فلوس . ويخترق الساحة المقفرة نداؤهم : « بارد ، بارد » وبعد صياحهم يخيم الصمت من جديد تحت الشمس : يتقلقل الثلج ، في قرية البائع ، وأسمع صوته الخافت . وهناك صمت القيلولة . ففي شوارع « البحرية » ، وأمام دكاكين الحلاقين الدرنة ، يمكن للانسان أن يشمر به من طنين الذباب الرخيم خلف ستائر الخيزران الأجوف . وفي غير هذا المكان ، في مقاهي القصبة المغربية ، يكون الجسم هو الصامت ، فلا يستطيع أن ينتزع نفسه من هذه الأماكن ، ولا أن يهجر قده الشاي ويعود الى الزمن مع ضجيج دمه . لكن هناك على الأخص صمت أماسي الصيف .

هذه اللحظات الوجيزة التي يغور فيها النهار في الليل ، هل يجب أن تكون عامرة بالاشارات والنداءات السريعة كي تكون الجزائر مرتبطة في نفسي الى هذا الحد بها ؟ حين اكون لبعض الوقت بعيداً عن هذا البلد ، تخيل أغساقه وكأنها وعود بالسعادة . ثمة دروب بين أشجار المصطكى

والزيتون ، على التلال المشرفة على المدينة . وانما اليها يتجه قلبي آنذاك . انني
أرى منها عصائب من الطيور السوداء تحلق في الأفق الاخضر . وينبسط شيء
ما في السماء ، التي انقضت عنها شمسها فجأة . يتمطى شعب صغير كامل من
السحب الحمراء ويتلاشى في الفضاء . سرعان ما تلعج النجمة الأولى وهي
تتشكل وتتصلب في كثافة السماء ، ثم على حين غره ، يقبل الليل مفترساً .
يا لأمسيات الجزائر الهاربة ، أي روعة فيها اذن لتطلق في نفسي أشياء
كثيرة من عقالها ؛ وهذه العذوبة التي تتركها على شفتي : انها تتلاشى في الليل
قبل ان يتسنى لي الوقت لأمل منها . أهذا هو سر بقائها ؟ ان حنان هذا
البلد مبلبل وخفي . لكن القلب تستسلم له بكل خلاياه ، حين يظهر نفسه .
المرقص ، على شاطئ بادوفاني ، مفتوح كل الأيام . وفي هذه العلبة المستطيلة
الكبيرة المفتوحة على البحر بكل طولها ، يرقص شبان الحي الفقراء حتى
المساء . غالباً ما كنت انتظر هنا دقيقة فريدة . أثناء النهار ، تتولى حماية
القاعة مصاريع من الخشب مسطحة ، ترفع حين تخفي الشمس . آنذاك تمتلئ
القاعة بنور أخضر غريب ، يولده تلاحم السماء والبحر . واذا كنت جالساً
بعيداً عن النوافذ ، فانك لا ترى الا السماء ، وأوجه الراقصين التي تمر
بالتناوب ، كأشباح صينية . أحياناً ، يعزف الفالس ، فتدور الأوجه
السوداء ، على الخلفية الخضراء ، كتلك الرسوم المقصودة التي تلتصق على
قرص الحاكي . ثم يأتي الليل بسرعة ، ومعه الأضواء . لكنني لن استطيع ان
اعبر عما أجد من وحي وغموض في هذه اللحظة الحاطفة . انني لأذكر على
الاقل فتاة طويلة بديمة رقصت طوال العصر . كانت تضع طوقاً من الياسمين
فوق ثوبها الأزرق الملتصق بجسمها ، والندي بالعرق من صلبها الى ساقها .
كانت تضحك وهي ترقص وترمي برأسها الى الوراء . وحين كانت تمر قرب

الطاولات، كانت تترك خلفها رائحة مزيجاً من الازهار والجسد . وحين اتبل المساء ، بت لا أرى جسمها الملتصق بمراقصها ، لكن كانت تدور على أديم السماء بقع متعاقبة من الياسمين الابيض والشعر الاسود ، وحين كانت تدفع الى الخلف بصدرها الممتلئ ، كنت أسمع ضحكها وأرى الوجه الجانبي لمراقصها ينحني فجأة . انني لمدين لهذه الاماسي ، بالفكرة التي اكونها عن البراءة . واما هذان الخلوكان المشحونان بالعنف ، فقد تعلمت ألا افرق بينهما وبين السماء التي تحوم فيها شهواتها .

* * *

في دور سينما الاحياء ، في مدينة الجزائر ، تباع احياناً اقراص من النعنع ، محفور عليها بالاحمر كل ما هو ضروري لولادة الحب : ١ - اسئلة : « متى ستزوجيني » ، « هل تحبينني ؟ » ، واجوبة : « الى حد الجنون » ، « في الربيع » وبعد ان يهد الفتى الميدان ، يدفع بها الى جارته التي تجيب بالمثل او تكتفي بتجاهله . ولقد عقد اكثر من قران واحد ، في بلكور على هذا النحو، واتحدت اكثر من حياة مع غيرها بتبادل سكاكر النعنع . وهذا يصور احسن تصوير الشعب الطفل لهذا البلد .

ربما كان عنوان الشباب ميلاً عظيماً الى السعادات السهلة . لكن الشباب انما هو على الأخص استعجال للحياة يقارب الاسراف وفي بلكور ، كما في باب الأود ، يتزوج الشبان باكراً . انهم يشتغلون قبل الآوان بكثير ويستوعبون في عشر سنين تجربة حياة انسانية كاملة. ان عاملاً في الثلاثين من العمر يكون قد قامر بكل اوراقه . انه ينتظر النهاية بين زوجته واطفاله . لقد كانت

حظوظه مفاجئة لا ترحم . وكذلك كانت حياته . وهكذا نفهم انه ولد في هذا البلد الذي يعطى فيه كل شيء ليسترجع من جديد وفي هذه الوفرة وهذا السخاء ، تأخذ الحياة متمنى الاهواء العظيمة ، المفاجئة ، العاصفة ، الكريمة . انها ليست معدة للبناء ، بل للاحتراق . اذن لا مجال للتفكير ولتحقيق التقدم . ان مفهوم الجحيم . على سبيل المثال ، ليس الا مزحة محببة هنا . ان امثال هذه التخيلات لا يسمح بها الا للمتزمين في الفضيلة . واعتقد عن حق ان الفضيلة كلمة لا معنى لها في الجزائر قاطبه . ليس لأن هؤلاء البشر يفتقرون الى مبادئ ، فان لهم اخلاقهم الخاصة بهم . ان الفرد منهم لا يقصر في حق أمه . ويوفر الاحترام لزوجته في الشوارع . ويحيط المرأة الحامل بعين الرعاية . ولا يهاجم خصماً له مستمعيناً برفيقه ، لأن « في هذا خبثاً » ومن لا يحفظ هذه الوصايا الاساسية ، « لا يكون رجلاً » ، وهكذا تسوى القضية . هذا يبدو لي عدلاً وحقاً ، وكثيرون منا لا يزالون يراعون عن غير وعسي قانون الشارع هذا ، وهو القانون المزه الوحيد الذي اعرف . لكن اخلاق الحانوتي مجهولة هنا في الوقت نفسه . لقد رأيت حولي دائماً وجوهاً تشفق عند مرور رجل يمدق به شرطة وقبل ان يعرفوا أسرق الرجل ، أم قتل أمه ، ام أنه مجرد شخص غير امثالي ، يقولون « المسكين » ، أو يقولون بشيء من الاعجاب : « ان هذا لقرصان » .

ثم شعوب ولدت للكبرياء والحياة . انها الشعوب التي تتمهد بالرعاية اغرب ميل الى السأم . كما ان شعور الموت عندها هو أكره المشاعر . واذا ما استثنينا فرح الحواس ، فان تسليات هذا الشعب بليدة . إن جمعيات الشفيلة ومآدب « الأصدقاء » وسيا الثلاثة فرنكات والأعياد البلدية تكفي منذ سنين للترفيه عن تجاوز الثلاثين من العمر . إن ايام الاحاد في الجزائر هي من اكاب

الأيام . فكيف يمكن لهذا الشعب الضيق التفكير ان يلبس بالأساطير هول حياته العميق ؟ ان كل ما يمت بصلة الى الموت هنا سخيف أو مكروه . ان هذا الشعب الذي يعيش بدون دين وبدون أصنام يعيش وحيداً بعد ان عاش جماعة . انني لا أعرف مكاناً أبشع من مقبرة شارع « برو » تجاه مشهد من أجل مشاهد العالم . ان اكداساً من الذوق الفاسد بين أطر سوداء تكشف عن كآبة رهيبية في هذه الأمكنة التي يكشف فيها الموت عن وجهه الحقيقي . وتقول النذور التي على شكل قلب « كل شيء ينقصني الا الذكرى » . وجميعها تلح على ذلك الخلود المضحك الذي يقدمه لنا بثمان بجنس قلب من أحبونا . انها الجمل نفسها التي يوصف بها اليأس بكل أنواعه . انها تخاطب الميت بلسان ضمير المخاطب : « ذكرانا لن نتخلى عنك » ، وأي مداهنة مفعمة هذه المداهنة التي تنسب جسماً ورغبات الى ما هو على أفضل الحالات سائل أسود . وفي مكان آخر ، وسط وفرة مذهلة من الزهور والطيور الرخامية ؛ يتعالى هذا النذر الجسور : « لن يبقى قبرك أبداً بدون زهور » . ولكن سرعان ما يسكن الروح : اذ لا يعني هذا الكلام الا باقية من الملائم الذهبي . اقتصادية جداً بالنسبة لوقت الأحياء (كتلك الزهور المساة بالخالدات والمدينة باسمها الفخم لعرفان جميل من لا يزال يستقل الحافلة الكهربائية أثناء سيرها) . ولما كان لا بد من مسيرة العصر ، فانهم يستعيضون أحياناً عن طائر الدخلة الكلاسيكي بطائرة مدوخة من الآليء يقودها ملاك ساذج مزود ، خلافاً لكل منطق ، يبحاين عظيمين .

لكن كيف أوضح ان صور الموت هذه لا تتفصل أبداً عن الحياة ؟ ان القيم هنا وثيقة الارتباط . والنكتة المبهذة عند القبارين الجزائريين ، حين تكون عرباتهم فارغة ، ان يصيحوا بالصبايا الجميلات اللاتي يصادفونهن :

« أتصعدين ، يا حبيبتي ؟ » . ولا شيء يمنع من أن نرى في هذا رمزاً ، حتى ولو كان غليظاً . وقد يبدو أيضاً ان هناك شيئاً من التجديف في جواب المرء عند إنبائه نعيماً قائلاً وهو يغمز بعينه : « مسكين ، لن يغني بعد الآن » ، أو كتلك الوهرانية التي لم تحب زوجها قط : « الله اعطاني اياه ، والله استرجعه مني » ، لكنني لا أستطيع ، بعد كل حساب ، أن أدرك أي قدسية يمكن أن تكون للموت ، وانني لأشعر شعوراً قوياً ، على العكس ، بالمسافة القائمة بين الخوف والاحترام . إن كل شيء هنا يتنفس القرف من الموت في بلد يدعو الى الحياة . ومع ذلك فتحت أشجار هذه المقبرة بالذات يضرب فتیان بلكور المواعيد وتستسلم الفتيات للقبل والمداعبات .

انني افهم جيداً ألا يتقبل الجميع هذا الشعب . فليس للذكاه مقام كما في إيطاليا . ان هذا العرق لا يبالي بالروح . ان عبادته ، اعجابه ينصب على الجسد ، انه يستمد منه قوته ، ومجونه الساذج وغروراً صبيانياً تناله منه أحكام قاسية . فغالباً ما يوجه اللوم الى «عقليته» ، أي الى اسلوبه في الرؤية والحياة . وصحيح أن بعض الألفاف في الحياة يترافق دوماً وبعض الظلم . لكن هذا شعب بدون ماضٍ ، بدون تقاليد ، غير انه لا يخلو من شعر - بيد انه عرف حق المعرفة نوعيته ، صلب ، جسدي ، بعيد عن الحنان ، كعشر ممائم ، الشعر الوحيد الذي انفعل به واتفق له في الحقيقة . ان نقيض الشعب المتمدين هو الشعب الخلاق .

ان لي أملاً مجنوناً في أن يكون هؤلاء البرابرة الذين يسترخون على الشطآن هم في سبيلهم ، ربما عن غير علم منهم ، الى نحت وجه لثقافة تجدد فيها عظمة الانسان اخيراً وجهها الحقيقي . ان هذا الشعب الخائض بأسره في

الحاضر يعيش بدون أساطير ، بدون عزاء . لقد وضع كل ثرواته على هذه الأرض وبقي منذ ذاك دون دفاع ضد الموت ، ان هبات الجمال الجسمي موفورة لديه . ومعها ذلك الشره الغريب الذي يرافق دوماً هذا الفنى الذي لا مستقبل له . ان كل ما يفعله الانسان هنا يدل على النفور من الاستقرار واللامبالاة تجاه المستقبل . انهم يستعجلون الحياة واذا كان سيولد من هذا فن ، فانه سيخضع لكراهية الديمومة التي دفعت الدوريين الى نحت عمودهم الأول من الخشب . ومع ذلك ، أجل يمكننا أن نجد اعتدالاً في نفس الوقت الذي نجد فيه تجاوزاً في الوجه العنيف الضاري لهذا الشعب ، في سماء الصيف هذه الفارغة من الحنان ، التي تصلح كل الحقائق لتقال عنها والتي لم ترسم عليها أي ألوهية خادعة علائم الأمل أو الفداء. فبين هذه السماء وهذه الأوجه الملتفتة إليها ، لا مكان لميتولوجيا ، أو لأدب ، أو لأخلاق ، أو لدين ، انما فقط حجارة ، وجسد ، ونجوم ، وهذه الحقائق التي يمكن للبدن ان تلمسها .

ان يحس المرء بارتباطاته بأرض ما ، وبجبهه لبعض البشر ، ان يعرف ان هناك دوماً مكاناً يجد فيه القلب تجاوبه ، فهذا يقين وأكثر من يقين بالنسبة لحياة انسانية واحدة . وهذا بلا ريب لا يمكن ان يكفي . لكن كل شيء في موطن الروح هذا يصبو الى بعض الدقائق . « أجل ، الى هناك يجب ان نلتفت » . أي غرابة في ان نجد هذا اللقاء ، الذي كان يتمناه افلوطين ، على الأرض ؟ ان الاتحاد يتترجم هنا بألفاظ الشمس والبحر . والقلب حساس به بما في الجسد من نكهة معينه تمنحه مرارته وعظمته . انني أدرك ان ليست هناك سعادة فائقة الانسانية ، ولا أبدية خارج منحى الأيام . ان

هذه الثروات الزهيدة والأساسية ، هذه الحقائق النسبية هي الوحيدة التي أنفعل لها . أما الحقائق الأخرى ، « المثالية » فليس لدي ما فيه الكفاية من الروح لأفهمها . وليس معنى ذلك انه يجب ان نمارس الحيوانية ، لكنني لا أجد معنى لسعادة الملائكة . انني أعرف فقط ان هذه السماء ستدوم أكثر مني . وما الأبدية ان لم تكن ما سيستمر بعد موتي ؟ انني لا أعبر هنا عن اعجاب بالخلوق من حيث أصله . انما أعني شيئاً آخر . ليس من السهل دوماً ان تكون انساناً ، وأصعب من ذلك ان تكون انساناً نقياً . لكن ان تكون نقياً ، فهذا معناه ان تبلغ موطن الروح الذي تصبح فيه قرابة العالم محسوسة ، وتلتقي فيه ضربات الدم مع نبض الشمس العنيف في الساعة الثانية ظهراً . ومن المعروف ان المرء يتعرف الوطن في لحظة ضياعه . ومسقط الرأس بالنسبة لمن تعذبهم نفوسهم أشد العذاب هو الموطن الذي يحخدم . انني لا أريد أن أكون فظاً ولا أن يبدو علي انني ابالغ . لكن ما يحشدني أخيراً في هذه الحياة هو أولاً ما يقتلني . ان كل ما يعظم الحياة ، يزيد في الوقت نفسه في عبثها . انني أتعلم ، في صيف الجزائر ، ان ثمة شيئاً واحداً أفجع من الألم ، أعني حياة انسان سعيد . لكن هذا يمكن أن يكون أيضاً طريقاً أكبر ، لأنه يؤدي الى الخيلولة دون كل غش .

كثيرون بالفعل يتظاهرون بحب الحياة ليتملصوا من الحب نفسه ، انهم يحاولون ان يتمتعوا وان « يقوموا بتجارب » . لكن هذه نظرة روحية . لا بد من اهلية نادرة ليكون الإنسان ممتعاً . ان حياة الانسان تتحقق دون عون من روحه ، بتراجمها وتقدمها بعزلتها وحضورها في آن واحد . واني لأظن ، اذ ارى رجال بلكور هؤلاء يعملون ، ويدافعون عن زوجاتهم واطفالهم ، دون اي تدمير في اغلب الاحيان ، ان الانسان قد يشعر بنجس

بقي ، انني بلا ريب لا اتعلل بالاوهام . فليس ثمة حب كثير في الحيوانات التي اتكلم عنها . وربما كان علي ان اقول انه لم يبق فيها حب كثير . لكنها تتملص من شيء ، على الاقل . ثمة كلمات لم افهما قط حق الفهم ، ككلمة لخطيئة . بيد انني اعتقد انني اعرف ان هؤلاء الرجال لم يقترفوا خطيئة ضد الحياة . ذلك انه إن كانت هناك خطيئة ضد الحياة ، فهي ليست اليأس منها بقدر ما هي الأمل في حياة اخرى ، والتهرب من عظمة هذه الحياة الدنيا التي لا يشفى لها غليل . ان هؤلاء الرجال ما عرفوا الغش . لقد كانوا الهمة الصيف مذ كانوا في العشرين بجميتهم للحياة ، وهم ما زالوا كذلك ، رغم حرمانهم من كل أمل . لقد رأيت اثنين منهم يموتان . كانا يطفحان بالهلع ، لكن بصمت . وهذا افضل . لقد اطلق اليونان ، من علبة باندورا^(١) التي تربي فيها شرور الانسانية ، الأمل بعد سائر الشرور ، وكان ارهبها . انني لا اعرف رمزاً يهيج النفس كهذا الرمز . ذلك ان الأمل ، خلافاً لما يظن ، يعادل الرضوخ . وان تعيش ، فهذا معناه الا ترضخ .

هذه هي على الاقل الامثلة اللادعة لأصناف الجزائر . لكن ها ان الفصل يرتعد والصيف يترنح . ولقد بدأ تهطل امطار ايلول الاولى ، بعد الكثير من العنف والتخشب ، وان هذه الامطار لكالدموع الاولى للارض المتحررة ، وكان هذا البلد قد امتزج بالحنان خلال بضعة ايام . لكن اشجار الخرنوب اخذت في الوقت نفسه تقفوح برائحة حب على كل الجزائر . وعند المساء ،

(١) باندورا ، حواء العالم كما جاء في الاساطير اليونانية . وقد اهداها زوريس علبة تحتوي على كل الشرور ، وارسلها الى الارض حيث تزوجها ابيميتيوس ، آدم اليونان ، وفتح العلبة مطلقاً كل الشرور ، ولم يبق في قعرها الا الامل .
الترجم

بعد المطر ، تستريح الارض بأسرها ، وبطنها ندية بزرع له اريج اللوز المر ،
بعد ان بذلت نفسها للشمس طوال الصيف . وها هي هذه الرائحة تبارك
من جديد اعراس الانسان والارض ، وتولد فينا الحب الوحيد الرجولي حقاً
في هذا العالم : الحب الفاني المعطاء .



ملاحظة

تحت عنوان « ملاحظة » كتب كل من صفتين في نهاية « الصيف في الجزائر » وصف فيهما اللهجة العامية لسكان مدينة الجزائر . ولم يكن قصده من ذلك إلا أن يقدم للقارئ ، نموذجا من لغة فرنسية خاصة هي اللغة التي أبداعها أهل الجزائر . لكن ترجمة هاتين الصفتين مستحيلة مع الأسف . لهذا نكتفي بأن نشير اليهما مجرد اشارة .



« المترجم »

الصحراء



يقيناً ، إن الحياة هي الى حد ما نقيض التمييز . واذا ما صدقت كبار الاساتذة التوسكانيين ، فانها الشهادة ثلاث مرات في الصمت ، والسعير ، والسكون .

لا بد من زمن طويل لنذكر اننا نصادف شخصيات لوحاتهم كل يوم في شوارع فلورنسا أو بيزا . لكننا بتنا أيضاً لا نعرف كيف نميز الوجوه الحقيقية لمن يحيط بنا . لقد بتنا لا ننظر الى معاصرنا ، فلا نتكالب إلا على ما يرشد خطانا فيهم ، وينظم مسلكنا . اننا نفضل على الوجه ما فيه من شعر مبتدل . أما جيوتو وبييرو ديلا فرانشسكا ، فقد كانا يعرفان حق المعرفة أن حساسية انسان ما ليست شيئاً . وفي الحقيقة ، ان لجميع الناس قدراً من العاطفية . لكن العواطف الكبيرة البسيطة والخالدة التي يدور حولها حب الحياة ، والبغضاء ، والحب ، والدموع ، والافراح ، تنمو في أعماق الانسان

وتُنحت وجهه مصيره - كما في لوحة دفن المسيح لجيوتينو ، وآلام مريم الصارفة بأسنانها . واني لأرى ، في كنائس توسكانيا الفسيحة ، جمعاً غفيراً من ملائكة وجوههم منقولة عن بعضها البعض الى ما لا نهاية ، لكنني اتعرف ، في كل وجه من هذه الوجوه الصامتة الواهية ، عزلة .

قد تكون المسألة فعلاً مسألة تصوير ، أو قصة ، أو فروق دقيقة ، أو اثاره انفعال . وقد تكون مسألة شعر . لكن انما المهم الحقيقة . واني لأسمي حقيقة كل ما يستمر . وثمة مبدأ ناقب النظر يقول أن الرسامين وخدم يستطيعون إرواء ظمئنا الى هذه الحقيقة ذلك أن لهم امتيازاً : فقد جملوا من انفسهم روائيي الجسم . ذلك انهم يشتغلون بتلك المادة العظيمة والزهيدة التي تدعى الحاضر . والحاضر يرتسم دوماً في بادرة . انهم لا يرسمون ابتسامة أو حياء عابراً ، حسرة أو انتظاراً ، بل وجهاً بكل بروز عظامه وحرارة دمه . ولقد طردوا الى الأبد من هذه الوجوه الجامدة في خطوط أزلية لعنة الروح : على حساب الأمل . ذلك ان الجسم يجهل الأمل . انه لا يعرف الا نبضات دمه . ان الأبدية الخاصة به قائمة على اللامبالاة . كما في « جلد المسيح » لبيرو ديلا فرانشسكا حيث يكشف المسيح المعذب والجلاد الفليظ الجثة في وضعها ، داخل باحة منسولة حديثاً ، عن التجرد ذاته . ذلك ان هذا العذاب ليس له تنمة . وامثولته تتوقف عند اطار اللوحة . فما الداعي لان ينفعل من لا ينتظر غداً ؟ ان عدم التأثر هذا وعظمة الانسان الذي بلا أمل ، ان هذا الحاضر الأبدى ، هو ما سماه اللاهوتيون المتبحرون بالجحيم . والجحيم ، كما لا يجهل ذلك أحد ، هو أيضاً الجسد الذي يتوجع . انما عند هذا الجسد يتوقف التوسكانيون لا عند مصيره . ليست هناك رسوم تنبئية . وليست المتاحف مكاناً للبحث عن أسباب الأمل .

حقاً ان خلود الروح يشغل الكثير من العقول الطبية . لكن ذلك لانهم يرفضون الحقيقة الوحيدة المعطاة لهم والتي هي الجسم ، قبل ان يستهلكوا نفسها . ذلك ان الجسم لا يطرح عليهم مشكلات ، أو انهم على الأقل يعرفون الحل الوحيد الذي يقترحه : انه حقيقة يجب ان تقف ومن هنا كانت له مرارة ونبل لا يجرؤون على النظر اليها وجهاً لوجه . ان العقول الطبية تفضل عليه الشعر ، لانه من مشاغل الروح . وقد يكون ملموساً انني اتلاعب بالالفاظ . لكن من المفهوم ايضاً اني اريد في الحقيقة ان اكرس شعراً اكثر سمواً: الشعلة السوداء التي رفعها الرسامون الايطاليون من تشيابوي الى فرانسكا بين مشاهد توسكانيا وكأنها احتجاج صاح للانسان الملقى به على ارض تحدته عظمتها وضياؤها بلا انقطاع عن اله لا وجود له .

ولفرط اللامبالاة واللاحساسية قد يتوصل وجه مساه الى بلوغ العظمة الجهادية لمشهد ما . وكما يتوصل بعض فلاحي اسبانيا الى ان يشبهوا اشجار زيتون اراضيهم ، كذلك تتمكن وجوه جيوتو ، وقد تعرت من الظلال الباهتة التي تتجلى فيها الروح ، من الاندماج بتوسكانيا نفسها من خلال الامثلة الوحيدة التي تفيض بها : ممارسة الهوى على حساب الأنفعال ، مزيج من الصبوات والمتع ، تجاوب مشترك بين الارض والانسان ، يتحدد الانسان به ، كالارض ، في منتصف الطريق بين البؤس والحب ليس ثمة من حقائق كثيرة يركن اليها الانسان . ولقد عرفت بداهة هذه الحقيقة ، مساء يوم اخذ فيه الظل يفرق الكروم واشجار الزيتون في ريف فلورنسا بكآبة صامتة جليلة . لكن الكآبة في هذا البلد ليست الا تفسيراً للجمال . وفي القطار الذي كان ينسل عبر المساء كنت اشعر بشيء ما تنحل عقده في . أستطيع ان اشك اليوم ان ذلك يسمى ، رغم وجه الكآبة ، السعادة ؟

جل ، ان الامثولة التي يصورها هؤلاء الرجال ، تفرق ايطاليا ايضاً في عطاءها عن طريق مناظرها الطبيعية . لكن من السهل ان تفوتنا السعادة باعتبار انها غير مستحقة دائماً . كذلك شأن ايطاليا . ففتنتها ، وان كانت مفاجئة ، ليست فورية دوماً . انها تدعو ، اكثر من اي بلد آخر ، الى تعميق التجربة التي يبدو عليها للوهلة الاولى انها تسلمها كاملة . ذلك انها فياضة بالشعر اولا لتخفي حقيقتها بمهارة اكبر . ان تعاويذها الاولى هي طقوس نسيان : اشجار الدفلى في موناكو ، جنوى المليئة بالزهور وروائح السمك ، والامسيات الزرق على الشاطئ الليجوري . واخيراً بيزا ومعها وجه من ايطاليا قد أضع سحر الريفيرا السوقي قليلاً . لكنها ما تزال سهلة المنال فلم لا نرتضي لهنية من الزمن بفتنتها الحسية . اما عني انا الذي لا يقسرنى شيء حين اكون هنا (والمحروم من أفراح المسافر الملتاع لان تذكرة مخفضة السعر تقسرنى على البقاء مدة من الزمن في المدينة « التي اختار ») ، فان صبري على الحب وعلى الفهم يبدو لي بلا حدود هذا المساء الاول الذي دخلت فيه بيزا ، متعباً جائعاً ، فاستقبلتني على رصيف المحطة عشرة من مكبرات الصوت تزعق وتصب موجة من الاغاني العاطفية على جمهرة من الناس معظمهم من الشبان . انني اعرف من الان ما ينتظرني . فبعد هذا التوثب بالحياة ، ستأتي لحظة فريدة ، حين تغلق المقاهي ويستتب الصمت من جديد فجأة ، أمضي فيها من شوارع قصيرة ومعتمة نحو قلب المدينة . نهر الآرنو الاسود والذهبي ، الانصاب الصفر والخضر ، المدينة المقفرة ، كيف اصف هذه الحيلة المفاجئة والبارعة التي تنقلب بها بيزا الساعة العاشرة مساء الى ديكور غريب من الصمت ، والماء ، والحجارة . « كان ذلك في ليلة ممائلة ، يا جسيكا ! » . ها هي الآلهة تتجلى ، على هذا المسرح الوحيد من نوعه ، بصوت عشاق

شكسبير .. علينا ان نعرف كيف نرتضي بالحلم حين يرتضي الحلم بنا . اتني اشمر من الان في اعماق هذا الليل الايطالي بالأحمان الاولى لذلك النشيد الباطني الذي يأتي الناس الى هنا بحثاً عنه . غداً ، غداً فقط ، سيتألف الريف مع الصباح. اما هذا المساء فهأنذا إله بين الآلهة ، واما جسيكا التي تهرب من «خطي يحملها الحب » اضم صوتي الى صوت لورنزو لكن جسيكا ليست الا ذريعة ، ووثبة الحب هذه تتجاوزها . اجل ، اعتقد ذلك ، فلورنزو لا يحبها بقدر ما يعترف لها بالجميل لساحها له بالحب . لكن لم افكر هذا المساء بعاشقي البندقية وانسى فيرونا ؟ ذلك ان لا شيء هنا ايضاً يدعو الى التعلق بعشاق تمساء . لا شيء باطل كأن يموت المرء من اجل حب . انما الحياة أجدر به . ولورنزو حياً خير من روميو دفيناً تحت الثرى ورغماً عن شجرة الورد فوق ضريحه . فكيف اذن لا ارقص في هذه الاعياد للحب الحي ، واتام بعد الظهر على العشب الطفل في بيازا ديل ديومو ، بين الانصاب التي يتوفر الوقت دوماً لزيارتها ، واشرب من عيون المدينة حيث كان الماء ساخناً بعض الشيء لكن سلسبيلاً ، وارى من جديد وجه تلك المرأة التي كانت تضحك ، بانفها الطويل وفيها المزهو . يجب ان نفهم فقط ان هذا الاعداد هيء للإشراقات أسمى . انها المواكب المتألقة التي تقود مريدي ديونيزيوس الى ايلوزيس . انما في الفرح يحضر الانسان دروسه ، وحين يبلغ الجسد أسمى درجة من النشوة يضحى واعياً ويكرس اتحاده بسر مقدس رمزه الدم الاسود . وها هو نسيان الذات الذي انله من حيا ايطاليا الاولى هذه ، هيئتي لهذا الدرس الذي يحررتنا من الأمل ويخطفنا من ماضيها . يا لحقيقة اللحظة والجسم المزدوجة ، عند مشهد الجمال ، كيف لا نتعلق بها كما نتشبث بالسعادة الوحيدة المنتظرة ، التي ستسعرنا ، لكن التي ستفنى في الوقت نفسه !

* * *

ليست المادية المنفردة هي المادية التي نظن، بل المادية التي تريد ان تجعلنا نعتبر بعض الأفكار الميتة وقائع حية ، وان تلفت الانتباه العنيد الصاحي ، الذي نخص به ما لا بد ان يموت فينا الى الأبد ، لتوجهه الى أساطير عقيمة . انني لأذكر انه اجتاحني شيء ما ، بفلورنسا ، في دير الموتى ، في سانتيسيا آنونزياتا حسبته عناء ولم يكن الا غضباً . كانت تمطر . وكنت أقرأ ما كتب على شواهد القبور والنذور . كان هذا أباً حنوناً وزوجاً وفيماً . وكان ذلك ، على كونه خير الأزواج ، تاجراً ذكياً . كانت هنا امرأة صبية ، مثال لكل الفضائل ، تتكلم الفرنسية « كأهلها » وهناك فتاة كانت معقد آمال ذويها . لكن لم يكن شيء من هذا يمسي . لقد رضخ جميعهم تقريباً ، حسب النقوش ، للموت ، وبلا ريب لأنهم كانوا يقبلون بسائر واجباتهم . ولقد غزا الأطفال اليوم المقبرة وراحوا يقفزون فوق الشواهد التي تريد أن تحلهم فضائلهم . كان الليل قد أخذ يرخي سدوله ، فجلست على الأرض ، مسنداً ظهري الى عمود. وابتسم لي كاهن أثناء مروره . كان الارغن ، في الكنيسة ، يعزف بصوت أصم ، وكان اللون الدافئ لرسمه يعود للظهور أحياناً خلف صراخ الأطفال . كنت ، وأنا مستند الى العمود وحيداً ، أشبه بشخص أخذ بخناقته فهتف بإيمانه كملاذ أخير . كان كل شيء فيّ يحتج ضد مثل هذا الاستسلام . كانت النقوش تقول : « يجب » . لكن لا ، وكان تمردي على صواب . علي ان اقتفي أثر هذا الفرح الذي يمضي لا مبالياً لا يلوي على شيء كمسافر على الأرض ، خطوة خطوة . وكنت أقول لا لما سوى ذلك . كنت أقول لا بكل قواي وكانت الشواهد تعلمني ان لا جدوى من هذا وان الحياة هي « مع كل شمس شارقة شمس غاربة » . لكنني لا أزال الى اليوم لا أرى ما الذي تأخذه اللاجدوى من تمردي ، وان كنت أشعر شعوراً

واضحاً بما تضيف إليه .

على كل ، لم يكن هذا ما أريد قوله . كنت أريد ان أعانق عن قرب أكثر حقيقة كنت أشعر بها في قلب تمرذي بالذات ، حقيقة كان ما قلته امتداداً لها ، حقيقة تبدأ من الورود البطيئة النضج لدير سانتا ماريا نوفيلا ، لتنتهي عند نساء فلورنسا في صبيحة الأحد تلك ، بأثدائهن الحرة تحت أبواب خفيفة وبشفاهن الندية . فعند زاوية كل كنيسة تبسط ، في يوم الأحد ذاك ، باقات من الزهور ، دسمة لامعة ، متألثة بالماء . فأجد فيها نوعاً من « السذاجة » كما أجد فيها في الوقت نفسه مكافأة . ففي هذه الزهور ، كما في هاتيك النسوة ، ثراء سخي ، وما كنت أجد ان الرغبة في هاتيك النسوة ، ثراء سخي ، وما كنت أجد ان الرغبة هاتيك تختلف كثيراً عن الطمع في تلك . ان القلب الطاهر نفسه يكفي لذلك . ولا أقول أن الرجل يشعر غالباً بطهارة قلبه . لكن واجبه ، في هذه اللحظة على الأقل ، ان يسمي ما طهره مثل هذا التطهير الفريد حقيقة ، حتى ولو كان هناك احتمال في ان تبدو هذه الحقيقة في أعين البعض تجديفاً ، كما كنت أفكر في ذلك اليوم ، كنت قد أمضيت الصباح في دير للرهبان الفرنسيسكانيين ، في فينيزولا ، مفعماً برائحة أشجار الفار . وقد مكثت لحظات طويلة في باحة صغيرة مكتظة بالزهور المحمر ، بالشمس ، بالنحل الأصفر والأسود ، كانت مسقاة خضراء مرمرية في إحدى الزوايا . وكنت قد زرت ، قبل مجيئي ، صوامع الرهبان ، ورأيت طاولاتهم الصغيرة المزدانة يجمجمة ميت ، إن ذلك البستان يشهد الآن على أشواقهم . ثم عدت أدراجي الى فلورنسا . محاذياً التل الذي ينحدر نحو المدينة الواهبة نفسها بكل أشجار سروها كان يخيل إلي أن عظمة " تلك ، هاتيك النسوة وتلك الازهار كانت تبريراً لأولئك الرجال ، لم أكن

واثقاً من انها لم تكن أيضاً تبرير جميع البشر الذين يعرفون ان منتهى الفقر يعادل دوماً ترف العالم وغناه . كنت أشعر بايقاع واحد مشترك بين حياة هؤلاء الفرنسيين ، المحبوسين بين الأعمدة والزهور وبين حياة الشبان الذين يمضون كل السنة تحت الشمس على ساحل بادوفاني في الجزائر . واذا كانوا يزهدون ، فانما ذلك من أجل حياة أعظم (لا من أجل حياة أخرى) . وربما كان هذا هو المعنى الحقيقي الوحيد على الأقل لكلمة « تجرد » . إن في التعري معنى دائماً من الحرية الجسدية ، وهذا التآلف بين اليد والأزهار - هذا التفاهم الحبي بين الأرض والانسان المتحرر من البشري - آه ! اني سأتحذره ديناً لي لو لم يكن بالأصل ديني . كلا ، ربما لم يكن في هذا تجديف اذا قلت ان الابتسامة الداخلية في وجوه القديس فرانسوا التي رسمها جيوتو تبرر من يستطيع السعادة . ذلك أن الأساطير للدين هي كالشعر للحقيقة ، أي انها أقنعة مضحكة يججب بها هوى الحياة .

أأتمدى اكثر من ذلك ؟ ان الرجال أنفسهم الذين يعيشون في ، فينيزولا ، امام أزهار حمر زينون صومعتهم يجمجمة تغذي تأملاتهم . فلورنسا عند نوافذهم والموت على طاولاتهم . إن بعض الاستمرار في اليأس قد يولد الفرح . إن الروح والدم ، عند بلوغ الحياة درجة معينة من الحرارة . يمتزجان ، ويعيشان بيسر على تناقضات ، غير مباشرين بالواجب والايمان على السواء . إذن فلن أدهش اذا وجدت ان يبدأ حاذقة قد لخصت على أحد جدران بيضا مفهومها الغريب من الشرف على هذا النحو : « البرتو يفعل الحب مع اخته بالذات » . ولن أدهش اذا كانت ايطاليا موطن الحب السفاح ، أو على الأقل ، وهذا اكثر دلالة ، موطن الحب السفاح المعترف به . ذلك ان الطريق الذي يذهب من الجمال الى الخلود ملتو ، لكنه مؤكد . ان العقل ، بعد أن يأسره الجمال ، يبيت لا يتغذى إلا من العدم . وأمام هذه

المشاهد التي يضيق الصدر لعظمتها ، تكون كل فكرة من أفكاره نقياً
للإنسان . وسرعان ما يضحى الإنسان أمام العالم ، بعد أن قولى هذا القدر
من الاتهامات المرهقة نفيه وتمويهه وتشويهه ، مجرد لطنخة ممسوخة لا تعرف
من حقيقة إلا حقيقة سلبية ، أو لا تعرف إلا لون العالم ، أو شمسه .
ان المشاهد التي يمثل هذا الصفاء ميبسة للروح وجالها لا يطاق . ان هذه
الأناجيل من الصخر ، والسماء ، والماء ، تقول ان لا شيء يبعث . وفي أغوار
هذه الصحراء العظيمة على القلب ، تبدأ التجربة من الآن فصاعداً بالنسبة
لرجال هذا البلد . أي عجب اذا كانت النفوس السامية امام مرأى النبل ،
في الهواء المشبع بالجمال ، لا تقتنع بأن العظمة يمكن ان تتحد بالطيبة ؟ إن
عقلا بلا إله يجهز عليها يبحث عن إله فيما ينفيا .

لقد هتف بورجيا حين وصل الفاتيكان : « الآن وقد منحنا الله البابوية ،
علينا أن نهرع الى التمتع بها » . ولقد فعل كما قال . ولقد أحسن القول إذ
قال : علينا أن نهرع . إن في هذه الكلمة ياساً لا تعرفه إلا النفوس المفعمة .

ربما كنت مخطئاً ، ذلك اني بعد كل شيء كنت سعيداً في فلورنسا
وكثيرون غيري قبلي . لكن ما السعادة إن لم تكن ذلك التجاوب البسيط
بين كائن وبين الوجود الذي يعيشه ؟ وأي تجاوب شرعي يمكن ان يقيم وحدة
الإنسان والحياة إن لم يكن وعيه المزدوج لرغبته في البقاء ولقضاء الموت
المقدر عليه ؟ اننا نتعلم من ذلك على الأقل ألا نعتد على أي شيء وأن نعتبر
الحاضر الحقيقة الوحيدة الممنوحة لنا « علاوة » . انني أفهم ان يقال لي :
ايطاليا ، البحر المتوسط ، اراضٍ عريقة كل شيء فيها على قدر الإنسان .
لكن أين اذن ، ألا أروني الطريق ؟ دعوني أفتح عيني لأبحث عن قدرتي
وكفايتي ! أو بالأحرى بلي ، انني أرى : فينيزولا ، جميلة ، ومرافىء

الشمس . قدر الانسان ؟ الصمت والحجارة الميتة . وما سوى ذلك يخص التاريخ .

* * *

لكن ليس لي أن أقف هنا . ذلك انه لم يكتب ان السعادة منفصلة حتما عن التفاؤل . انها مرتبطة بالحب - وهذا ليس بالشيء نفسه . وانني اعرف اويقات وأماكن يمكن ان تظهر فيها السعادة لاذعة المرارة الى حد يفضل عليه معه وعدما . لكن هذا لأنه لم يكن لدي ، في تلك الاويقات أو تلك الأماكن ، ما فيه الكفاية من القلب لأحب ، أي كي لا أزهد . وما يجب ان أقوله هنا انما هو دخول الانسان في اعياد الارض والجمال . ذلك انه يتجرد امام ربه مما تبقى له من شخصية ، كما يتجرد المهتدي من آخر ثيابه قبل العماد . اجل ، ثمة سعادة أسمى تبدو فيها السعادة باطلة ، كنت ، في فلورنسا ، ارتقي بستان بوبولي ، حتى ابلغ هضبة اصل منها على جبل الزيتون ومشارف المدينة حتى الافق . كانت أشجار الزيتون ، فوق كل تل من تلك التلال ، شاحبة كأدخنة طفيفة ، ومن خلال الضباب الخفيف الذي تكونه كانت تنفصل فوارات اشجار السرو الصلبة ، الخضمر من قريب والسود من بعيد . وكانت سحب غليظة تلتفخ السماء التي كنت أرى زرقتها العميقة . ومع نهاية العصر ، كان يخيم نور لجيني يصبح فيه كل شيء صمًا . كانت قمة التلال في الغيوم باديء ذي بدء . لكن سرعان ما هب نسيم كنت أشعر بنفحة على وجهي . وتشتتت السحب معه ، خلف التلال ، كستار يفتح . وفي اللحظة عينها ، خيل إلي ان اشجار السرو في القمة قد تعاطف حجمها باندفاعها مرة واحدة في الزرقة التي انقضت فجأة . وتساعد معها تلوثة التل كله ومشهد اشجار الزيتون والصخور .

وجاءت سحب أخرى . وأسدل الستار . وهبط التسل من جديد .
بسروره وبيوته . ثم راح النسيم نفسه الذي فتح هنا ثنانيا السحب الكثيفة
يخيطها من جديد هناك ، بيمداً فوق تلال أخرى تتلاشى رويداً رويداً .

كان العالم ، بتنفسه الكبير هذا ، يرسل زفيره بين ثانية وأخرى ، فينبعث
من هذا الزفير لحن متسلسل متباعد من الصخر والهواء على صعيد العالم . وفي
كل مرة ، كان اللحن يخف قوته ، فأستعيد المزيد من الهدوء إذ أتبعه من
مسافة أبعد . وحين بلغت منتهى هذا المدى الذي كان قلبي ينفعل له ، عانقت
بنظرة خاطفة هرب التلال وهي تتنفس جميعاً معاً فكأنني عانقت معها نشيد
الأرض قاطبة .

إن ملايين العيون ، اعرف ذلك ، قد تأملت هذا المشهد ، ولقد كان ،
في نظري ، كبسمة السماء الأولى . كان يخرجني عن نفسي بالمعنى العميق لهذه
الكلمة . كان يؤكد لي أن لا جدوى من أي شيء ، لولا حيي وصيعة الصخر
الجميلة هذه . إن العالم جميل ، ولا سلام البتة خارجاً عنه . لقد كانت الحقيقة
الكبرى التي يعلمني إياها بصبر أن الروح لا شيء ، وكذلك القلب نفسه .
وان الصخر الذي تدفئه الشمس ، أو السرو الذي يتعاطم حجمه بانقشاع
أديم السماء ، يحدوان العالم الوحيد الذي تتخذ فيه عبارة « أن يكون
الانسان على حق » معنى : ان الطبيعة بدون بشر . وهذا العالم يلاشيني . يطل
بي على النهاية . ينقيني بدون غضب . كنت اتجه ، في ذلك المساء الذي يخيم
على ريف فلورنسا ، نحو حكمة كل شيء فيها قد طوع ، لو لم تغرورق عيناى
بالدموع ولو لم ينسني النحيب الكبير للشعر الذي تطفح به نفسي حقيقة العالم .

* * *

انما منذ هذا التأرجح يجب أن أتوقف: عند هذه اللحظة الفريدة. التي تطرد فيها الروحانية الأخلاق ، وتولد السعادة من غياب الأمل ، وتجد الروح تبريرها في الجسد. واذ كان صحيحاً ان كل حقيقة تحمل معها مرارتها فصحيح أيضاً أن كل نفي يحتوي أيضاً على برعم « نعم » ويستطيع نشيد الحب هذا الذي يولد بلا أمل من التأمل أن يمثل أيضاً أنجع قواعد العمل . فسيح بيرو ديلا فرانيسكا يخلو وجهه من أي نظرة انسانية، عند انبعاثه من القبر . وما من أثر من سعادة مرسوم على وجهه . انما فقط عظمة ضاربة لا روح لها ، لا يستطيع منع نفسي من اعتبارها تصميماً على الحياة . ذلك أن الحكيم كالابله يعبر قليلاً . لقد خلبت لي هذه العودة .

لكن هذه الأمثلة : أأنا مدين بها لايطاليا أم قد استخلصتها من قلبي ؟ لا ريب في انها تجلت لي هناك . لكن انما ذلك لأن ايطاليا ، كغيرها من الأمكنة الممتازة ، تقدم لي مشهد جمال يموت به البشر رغم ذلك . هنا أيضاً لا بد أن تفنى الحقيقة وهل ثمة ما يهيج الوجد كهذا ؟ ماذا أستطيع أن أفعل بحقيقة لن تنتن ، وان كنت اتناها ؟ انها تفوق مستواي . ولو احببتها لكان ذلك مني تكلفاً . ونادراً ما نفهم ان الانسان لا يتخلى بداعي اليأس ابداً عما كان تقوم عليه حياته . ان النزوات والقنوط تقود الى حيوات اخرى ولا تدل إلا على تعلق متخوف بدروس الحياة . لكن قد يحدث أن يشعر الانسان ، عند بلوغه درجة معينة ، من الصحو ، ان قلبه منغلق فيقلب ظهر الجن ، دون تمرد أو مطالبة ، لما كان يمتبره حتى تلك اللحظة حياته ، اعني اضطرابه . واذ كان رامبو قد انتهى في الحبشة دون ان يكتب سطرأ واحداً ، فلم يكن ذلك حباً بالمغامرة ، أو زهداً في الكتابة . انما « كان ذلك هكذا » ، ولأننا نقبل في النهاية ، حين يبلغ وعينا درجة معينة ، بما

كنا نجتهد جميعاً في ألا نفهمه ، كل حسب طريقته . من المحسوس ان المقصود هنا الشروع برسم جغرافية لصحراء معينة . لكن هذه الصحراء الفريدة لا يشعر بها إلا من كان قادراً على الحياة دون أن يروي ظمأه بسراب ماء أبداً .
وآنذاك ، آنذاك فقط ، تعمر بمياه للسعادة الحية .

تحت متناول يدي ، في بستان بوبولي ، تتدلى ثمار ذهبية عظيمة من ثمار الكاكي ، ينفلق لبها عن سلاف دسم . كنت ألتقط من هذا التل الرهيف الى هذه الثمار السيالة الرُب ، من الاخوة الحفية التي تؤالفني مع العالم الى الجوع الذي يدفعني نحو اللحم البرتقالي فوق يدي ، ألتقط التارجح الذي يقود بعض البشر من الزهد الى المتعة ومن التجرد الى الاسراف في السلذة . كنت أعجب ولا ازال بهذه الرابطة ، التي توحد الانسان بالعالم ، بهذا الانعكاس المزدوج الذي يمكن لقلبي ان يتدخل فيه ويملي سعادته الى حد معين فيستطيع العالم عندئذ ان ينجزها أو يهدمها . ابه فلورنسا ! انك من الامكنة القليلة في اوروبا التي فهمت فيها أنه في قلب تمرد يكتن رضوخ . لقد تعلمت ، تحت سماها الممزجة بالدموع والشمس ، كيف أرضخ للأرض واحترق في شعلة اعيادها القائمة . كنت أشعر .. لكن أي كلمة ؟ أي فيض ؟ كيف أكرس تآلف الحب والتمرد ؟ الأرض ! في هذا المعبد الكبير الذي أفقر من آلهته ، تنتصب أصنامي جميعاً على قواعد من خزف .

الفهرس

١١
٢١
٣١
٤٩

أعراس في تيبازة
الريح في جميلة
الصيف في الجزائر
الصحراء.

